تتوسطها مقبرة الشافعي الخالدة ؛ وكان النابلسي كما رأينا من أقطاب الصوفية الذين تستهويهم ذكريات القبور والمزارات المشهورة ، ومن ثم نراه يفيض في وصف زياراته للقرافة ومقابر الفسطاط التاريخية ولا سيما مقبرة الشافعي ، وينوه بعظمتها وسحرها ، ويترجم لمن يأتي ذكرهم من العلماء والأولياء ؛ ثم يصف زيارته لمزار وليه المصطفى ابن الفارض بجامع القرافة ، كما يصف لنا حلقات الذكر الصوفي الذي تنشد فيه القصائد والأناشيد المؤثرة ، ويقول لنا إنه شهد الأولياء أحياناً يأخذهم التأثر فيمزق بعضهم ثيابه أو يدوس الناس هائماً على وجهه لا يلوي على شيء

ولبث النابلسي بالقاهرة ثمانين يوماً حتى اقترب موعد السفر إلى الحجاز ؛ فقابل أمير الحاج المصري إبراهيم بك واستشاره في خير الوسائل للسفر الآمن ، وبذل أمير الحج له ما استطاع من النصح والمعونة ، وأعد النابلسي عدته للسفر وودع أصدقاءه في مظاهر مؤثرة ، وغادر القاهرة في السادس من رجب (سنة ١١٠٥) في ركب من المصريين والشاميين ، وغادرها من باب الشعرية كما دخلها ، وودع الوزير خارج القاهرة بقصره بالعادلية ، وإلى هنا تنتهي رحلته المصرية

٥٥٥

وإذا كان النابلسي لم يعن كثيراً بدراسة أحوال المجتمع المصري يومئذ ولم يقدم الينا عنه بيانات شافية ، فانه يقدم الينا بيانات وملاحظات لها قيمتها في دراسة المجتمع المصري في خاتمة القرن السابع عشر ؛ ولعل أنفس ما فيها أقواله عن معالم القاهرة ومعاهدها ، فهذه الأقوال في ذكر أبواب القاهرة وبركة الأزبكية وجزيرة الروضة والمزارات الكثيرة وغيرها ما يفيد في تعرف خطط القاهرة في هذا العصر ، وهي تعتبر حلقة في مجموعة الآثار التي لدينا عن الخطط ، ثم أن أحاديثه عن أعيان القاهرة وعن مجالسهم من الصور التي لها قيمتها في تعرف مجتمع هذا العصر . ولنذكر أن العصر الذي يحدثنا عنه النابلسي يسبق بداية العصر الذي يحدثنا عنه الجبرتي بنحو خمسين عاما فقط ، ومن ثم فني وسعنا أن نصل بين المواد المشتركة في هذين الأثرين في دراسة المجتمع المصري في القرن الثامن عشر

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

التشابه والاختلاف

في الأدبين العربي والانجليزي

خاتمة

للأستاذ فخري أبو السعود

يروع الناظر في الأدبين العربي والانجليزي شدة ما بينهما من تباعد ، وكثرة ما هنالك من وجوه الاختلاف ، وقلة ما فيهما من وجوه التشابه والاتفاق ، ولا غرو فان الظروف الجغرافية والتاريخية التي أحاطت بنشأة كل منهما ونموه وازدهاره ، كانت متباينة أي تباين ، والعوامل الاجتماعية والسياسية التي تترك آثارها في الأدب كانت متضادة أي تضاد ، فجاء الأدبان اللذان هما وليدا تلك الظروف والعوامل مختلفين أعظم اختلاف ، في الموضوعات والأساليب والأشكال والأغراض ، ولم يتفقا إلا في كل عام من الوجوه التي يستوي فيها جميع الآداب لشيوعها بين جميع شعوب الانسانية

فالأمة العربية أمة سامية ضربت في فيافي الجزيرة أحقاباً ، وترعرع أدبها تحت سماء البادية ، ثم خرجت من جزيرتها فورثت حضارات الأمم الشرقية ، وأخضعت لسلطانها أغنى بلاد الشرق وسيرت تحت لوائها شعوباً أرقى منها مدنية وأعرق في العلم والصناعة ودانت لحكومة ملكية مطلقة ، وكان الدين أساس دولتها وشارة مجتمعها ؛ والأمة الانجليزية أمة آرية خرجت من جزيرتها المنعزلة فجولت في البحار ، وشاركت في تراث الاغريق والرومان ، واعتنقت المسيحية ، وساهمت في الحضارة الأوربية ، وتمسكت بنظام الحكم الديمقراطي ؛ فهما أمتان مختلفتان في الجبلة ونوع المجتمع ومتجه التفكير ، فاختلف أدباهما تبعا لذلك ، ولم يتفقا كما تقدم إلا في وجوه عامة ومناح عارضة :

فعصر الجاهلية في تاريخ الأدب العربي شبيه بعصر ما قبل الزايث في التاريخ والأدب الانجليزيين : ففي ذينك العصرين كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيرته في عزلة كبيرة عن العالم . على حال شبيه بعصر الأبطال في بلاد اليونان الذي أنتج ملاحم

هوميروس ، وكان الأدبان تبعا لذلك جافيين ، وعرى اللفظ والأسلوب ، ساذجي المعنى ، بعيدين عن الصناعة الفنية ، وكانا أقل رقيا من الأدب الفني الذي جاء في العصر التالي ، وإن يكن الأدب العربي بلغ في عهد الجاهلية والبداوة والعزلة مبلغا من الرقي أعلى كثيراً من مبلغ الأدب الانجليزي قبل أن يتصل اتصالا وثيقا بثقافات الأمم الأخرى وآدابها

ونهضة العرب بظهور الاسلام تماثل نهضة الانجليز في عصر اليزابث ، بوصول النهضة الأوربية إلى انجلترا ، واتجاه نظر الانجليز إلى ما وراء البحر ، ففي كل من هذين العصرين بدأت الأمة تخرج من محيط جزيرتها وتشب عن طوق عزلتها ، وتتصل بالعالم وتصطنع حضارته ، وتبني لنفسها إمبراطورية مترامية الأطراف ، وارتقى أدبها من جراء ذلك ارتقاء عظيما ، ورقت ديباجته ودخل في طوره الفني ، طور الانشاء المحكم والمجهود الأدبي المتصل ، وانتشرت كلتا اللغتين في بقاع الأرض وافتتحت آدابها كثيرا من الأمم : فاللسان العربي الذي لم يكن يتجاوز حدود الجزيرة في الجاهلية ، صار يتكلم من تخوم الصين إلى المحيط الأطلسي ، وأثر في لغات وأزال غيرها وحل محلها ، واللغة الانجليزية التي لم يكن يتكلمها إلا ملايين معدودة في عهد شكسبير أصبحت تتكلم وتدرس في مشارق الأرض ومغاربها ، وأصبح أدبها عالميا كما كان أدب العرب عالميا على عهد عظمتهم

ولم تكن كل من الأمتين توطد أركان أمبراطوريتها حتى انسلخ عنها جانب من أملاكها ونما مستقلا حتى طاولها في النفوذ والسلطان ، وداناها في ازدهار العلوم والآداب : فكما انفصلت الأندلس عن الخلافة العربية ، استقلت الولايات الأمريكية عن الأمبراطورية البريطانية ، بيد أن البلاد الأصلية احتفظت بالزعامة الأدبية على طول المدى : فلم تنجب الأندلس من الأدباء من بذوا فحول العباسيين ، ولا ظهر في أمريكا ولا غيرها من أمحاء الامبراطورية البريطانية من دانى شكسبير وملتون ، فلعل التراث الثقافي الحافل ، والماضي التاريخي المؤثل من ضروريات ازدهار الأدب الأساسية ، وذلك ما كان يعوز الاندلس الاسلامية ، وما يعوز أمريكا الحديثة ، فظلت كلتاهما تلتفتان إلى الوطن الاول في طلب النموذج والمنهاج والوحي

وكلا الأدبين العربي والانجليزي تأثر إلى حد بعيد بالكتاب السماوي الذي تدين به أمته : فأثر القرآن في المجتمع العربي وتاريخ اللغة العربية وآدابها وثقافة أدبائها وأساليبهم جسيم شامل ، فقد كان منذ جاء مثلا أعلى في البلاغة وثقافة قائمة بذاتها ، والانجيل منذ ترجم إلى الانجليزية في عهد الاصلاح الديني كانت له اليد الطولى في تثبيت الأسلوب النثري الانجليزي ، وتثبيت مفردات اللغة وإدخال مفردات جديدة ، واشتقاق غيرها ، واختراع طرق للاشتقاق أدت إلى توسيع جوانب اللغة ، وكان دائماً قدوة للأدباء يحتذونها في إسلاس الأسلوب ، وله أثر مباشر جلي في كتابين هما من ذخائر الأدب الانجليزي ، أحدهما « رحلة الحاج » لبنيان والثاني « الفردوس المفقود » لملتون ، ففي كليهما يقوم أساس القصة على ما ورد في الانجيل من أنباء الخلق والبعث والحساب ، بل إن دراسة الانجيل كانت هي الثقافة الوحيدة التي نالها بنيان ، الذي كان قسماً ضئيل الحظ من العلم ، ومع ذلك يعد أسلوبه المبني على أسلوب الانجيل في الذروة في أدب اللغة .

تلك أمثلة من وجوه التشابه في الأدبين ، وظاهر أنه تشابه عام عارض محدود ، أما وجوه التناقض فعديدة تشمل نواحي الأدب وتضرب جذورها في صميمه : فالأدب العربي ازدهر في كل دولة إسلامية فهو أشد تأثرا واصطباغا بالنزعة الدينية من الأدب الانجليزي ، ومع ذلك قد جرى العرب إلى غايات من الترف واجتناء اللذات لم يبلغ بعضها الانجليز ، وبدا أثر ذلك الترف المغرق بجانب ذلك الروح الديني في أدبهم ؛ وقضت التقاليد التي نمت في المجتمع الاسلامي بإسدال الحجاب على المرأة ، فتقلص ظلها من المجتمع وضؤل أثرها في الأدب ، وازداد ضآلة بمرور الأيام بدل أن يزداد جسامة بتوطد الحضارة وذيوع التعليم واتساع جوانب الأدب ، فكانت المرأة الانجليزية أبين أثرا في أدبها - كاتبة ومكتوبا عنها - من المرأة العربية .

وعرف الانجليز فنونا لم يحفل بها العرب كثيرا كالتصوير والنحت ، وأغرموا بما اطلعوا عليه من آثار تلك الفنون من مخلفات الأمم القديمة ، وامتلأ أدبهم بوصف كل ذلك وتقديره والأدب العربي يكاد يكون خلوا من ذلك ؛ واكتسب أدباء الانجليزية على دراسة الآداب الأوربية المعاصرة وأفادوا منها كثيرا ، وتوفروا خاصة على دراسة الأدب الإغريقي القديم ، فكان لهذا الأدب أبعد الآثار وأشملها في الأدب الانجليزي : رحب آفاقه وبسط أساليبه وأشكاله ، ومد أمامه مناديح القول ووجه نظره إلى جمال الحياة الذي تصوره غرض الأدب والفن جميعا واكتسب الأدب الانجليزي صبغة إغريقية ظل الأدب العربي

بعيداً عنها ، فان هذا الاخير لشديد اعتداده بنفسه لم يحاول أن يطلع على آداب غيره ، أو يستفيد من تراث اليونان الادبى الحافل فكان ذلك الاقبال على الادب الاغريق من جانب الانجليز ، وذلك الاعراض عنه من جانب العرب من أكبر دواعى اختلاف الاديبين وتباعدهما .

وفى عهد الدولة والحضارة والثقافة ، عبد الطور الفنى للأدب حين يبلغ أوج رقيه ، رضخ العرب للملكية المطلقة ، والملكية تكف الشعب عن الحكم وتكف الادب عن النقد والاصلاح وتلحق الادباء بحاشيتها ، فجاء الادب العربى بلاطياً فى جملته ، يتمدح بمآثر الملوك ويصف مواكبهم ومظاهر عظمتهم ، ويغفل الشعب وأحواله وآماله إلى حد بعيد ، على حين اعتمد الادب الانجليزى فى أكثر عصوره على استجلاب رضى الشعب ، وتصوير أحواله ونشدان آماله ، فامتلأ الادب الانجليزى بالنظرات النقدية والقصص الاجتماعية والبحوث السياسية ، وحفل بتمجيد الحرية والديمقراطية واحترام الفردية والرأى العام ، على حين امتلأ الأدب العربى بالمدائح والرسائل الديوانية ، فمن أكبر مظاهر اختلاف الاديبين العربى والانجليزى ، صبغه الاخير الشعبية الفردية وصبغة الاول البلاطية الرسمية .

وهذا الانضواء تحت لواء الملكية أكسب الأدب العربى صفات وخصائص ظل الأدب الانجليزى خلوا منها : فغلبت على الادب العربى — الذى تعود الإغضاء والرضا بالكائن وعدم محاولة الاصلاح — نزعة المحافظة والتقليد ، على حين سادت الادب الانجليزى روح التجديد ، وتجدد على طول العصور لفظا وأسلوبا وموضوعا ؛ وكان من دواعى تلك المحافظة أيضا اشتغال غير العرب بالادب العربى ، بل ظهورهم على العرب فى مجال الصناعة الادبية ، وقدم من جراء ذلك كله الاسلوب على المعنى ، وكان يعد أديبا من تمكن من أصول اللغة وأحكم انشاء الجمل البليغة ، لا من لطف حسه وأرهف شعوره ، وانسعت نظرته وسمت فكرته فى الحياة ؛ وكان من أثر نزعة المحافظة والجمود التى سادت الأدب العربى ان جمدت أشكاله وموضوعاته ، فلم تتطور أشكاله وتتميز وتتعدد ، ولم تتجدد موضوعاته وتتكاثر وتتوالد ، على حين كان تاريخ الأدب الانجليزى تاريخ تجدد مستمر وإخصاب متزايد فى هذه النواحى جميعا .

ولسير الأدب العربى فى ركاب الأمراء ، واعتماده على عطفهم دون عطف الجمهور ، أهمل الأدب موضوعات كثيرة هى من صميم الفن ولباب الحياة ، وهى هم الأديب المفكر المحس ، كعبادة مفاتن الطبيعة والتفنن فى عرضها ، واستلهام حكم التاريخ والتأنق فى وصفها ، واستيحاء جلائل البطولة وتصوير روائعها ، واستخلاص مواضع الفتنة والمتعة والجمال من خرافات الأقدمين ، وإرضاء الفن بنظمها وتجديد شبابها ، وعرض آثار الرحلات التى يقوم بها الأديب ووقعها فى نفسه ، والسبح فى عوالم الخيال البعيدة الساحرة ، والضرب فى أعماق الماضى وآماد المستقبل وآفاق الانسانية الواسعة ، كان الأدب العربى — لاعتماده على صلات الأمراء — فى شغل شاغل بحاضر العيش وقريب المطلب عن كل تلك العوالم الزاخرة بالفن والحياة والشعور والمتعة ، فأهمل بعضها ولم يمس بعضها إلا مساً رفيقاً ، وبكل هاتيك العوالم وذخائرها وأصدائها يحفل الأدب الانجليزى

هذا الاختلاف المطرد الشامل فى البيئة والمجتمع والموضوع والأسلوب ، مرجع ذلك الاختلاف الرائع الملحوظ بين كتب الأدبى العرب وكتب الأدب الانجليزى ، ولخول هذا وأقطاب ذاك ، وسيرهم وآثارهم وعقلياتهم وشخصياتهم ، حتى ما نكاد نرى فى الأدبين شاعرين متمائلين أو كاتبين يذكرنا أحدهما بالآخر ، من جهة العقلية والأسلوب أو الموضوعات ، أو يتشابه موضوع كتاب هنا وموضوع كتاب هناك ، أو تخال فكرة قصيدة فى هذا الأدب صادرة عن نفس الحالة النفسية الصادرة عنها أخرى فى الأدب الآخر ، ليس هناك شىء من ذلك ، وليس بين الأدبين إلا التباعد والتناكر ، كما يتباعد ويتناكر شخصان غريبان مختلفا الموطن والنشأة والتربية ، والعقيدة الدينية والثقافة ، والنزعة فى الحياة والمتجه فى التفكير

فإذا وازنا بين كبرى شعراء الأدبين ، المتنبى وشكسبير ، بدا لنا الاختلاف والبون العظيم : فجانب كبير من شعر المتنبى موقوف على المدح والهجاء ، ولم يقل فيهما شكسبير حرفاً ، وشعر المتنبى ملىء بالحكم البليغة الموجزة المتجاورة يزاحم بعضها بعضاً وشعر شكسبير حافل بوصف الشخصيات وتحليل النفوس تحليلا مسهبا لايتوخى بلاغة الايجاز فى شىء ؛ وبجانب المدح والهجاء والحكمة وما يتصل بذلك لم يكد المتنبى يطرق موضوعا آخر بعيدا عن دائرة حياته الشخصية ، بينما روايات شكسبير وقصائده تعج بوصف الطبيعة وتقديس الفنون كالموسيقى وتمجيد الأبطال ،

وتضرب فى شعاب الخرافة وأرجاء التاريخ ؛ وشكسبير يراوح فى نظمه بين أشكال الشعر المختلفة ، بين الشعر المرسل والدوبيت والسونيت ، والفقرات المتراوحة طولا ، المتداخلة القوافى ، وقد دعى ضرب من السونيت باسمه لما أكسبه بعبقريته من مرونة ، على حين ظل المتنبى - وهو الشاعر العظيم المتمكن من اللغة والادب المطلع على حقائق الحياة - متمسكا بالشكل الشعرى الوحيد الذى وصل إليه من المتقدمين ، وهو القصيدة المصرعة المطلع الموحدة الوزن والقافية غير الموحدة الفكرة ، فلم يمنح الادب العربى شكلا ولا موضوعا لم يكن من قبله ؛ وعاش المتنبى ومات طامحاً إلى الملك وتضريب الاعناق ، ساخطا على تبريزه فى مضمار الادب الذى كان يحسد عليه ويكاد له من أجله ، ولم يكن شىء من ذلك مما يخطر لشكسبير على بال

وجلى واضح أن هذه الفروق بين الشاعرين العظيمين إنما ترجع إلى العوامل الاجتماعية والسياسية ، التى كانت تحيط بكل منهما وتكون نفسيته وعقليته ، وإلى هذه العوامل ذاتها يرجع التباين الشديد بين أبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن العميد وبديع الزمان من جهة ، وبين ملتون وبيرون وشلى وكيتس وجيبون وكارليل وما كولى من جهة أخرى ، وهو تباين يجعل من المحال تشبيه واحد من الفريق الاول بواحد من الفريق الثانى ، فى سيرته فى الحياة أو فلسفته الفكرية أو مذهبه الادبى ، وإن كان من أسهل الأمور استخراج العديد من أوجه الاختلاف والتضاد .

هذا الاختلاف فى البيئتين الجغرافية والظروف التاريخية ، والعوامل الاجتماعية والاقتصادية ، والجبلة والتقاليد والمنازع ، وهذا التباين بين الادبين فى المشرب والاسلوب والموضوع وشخصيات الادباء وسيرهم ، كل ذلك يجعل الموازنة بين الادبين من أمتع الدراسات الأدبية وأحفلها بالدروس والعبر ، وأدعاها إلى استخلاص المبادىء والنظريات الادبية ، وإلى التفطن إلى العوامل المؤثرة فى الآداب ونتائجها ، وقديما قيل : وبضدها تتميز الاشياء . ولو كان الادبان شديدى التشابه وليدى ظروف متقاربة وعوامل مؤثرة متماثلة ، لما كان فى الموازنة بينهما كبير طائل ، ولا كان تتبع ظواهرهما يستحق طويل عناء ، ولأشبها أن يكونا أدبا واحدا مشتركا بين أمتين ، موزعا بين لسانين

فخرى أبو السعود

واجبنا الثقافى

نحـــو الآداب والفنون

للأستاذ اسماعيل مظهر

قال الأستاذ الكبير لزلى إستيفن فى أول الفصل الثانى من كتابه العظيم « الفكر الانجليزى فى القرن الثامن عشر » ما يلى :

إن الكتب التى هى بمثابة الدعائم الثابتة فى تاريخ الآداب ، إنما تكون من طائفتين : احداهما طائفة الكتب التى تلخص جدل الماضى ، والثانية طائفة الكتب التى تعد جدل المستقبل

والظاهر من كلام هذا الرجل الفذ يتضمن فى مطاويه كثيرا من الحقائق التى ينبغى لنا أن ننعم النظر فيها ، ونطيل التأمل والاستبصار منها ، ذلك بأن آدابنا وفنوننا حتى الآن تفتقر إلى الطائفتين معاً : تحتاج إلى كتب تلخص جدل الماضى ، وتحتاج إلى كتب تعد العدة لجدل المستقبل .

أما الكتب التى تلخص جدل الماضى فلا سبيل اليها إلا بالترجمة والنقل عن اللغات الأخرى ، لنستكمل بها - فى لغتنا العربية المنيفة - الأداة التى تعدنا لجدل المستقبل . وعلى هذا نريد أن ننظر أتسع آدابنا وفنوننا اليوم تلك الكتب التى تتضمن مشاكل الماضى وتعدنا لمشاكل المستقبل ؟

أما الذين هم أميل إلى التفاؤل فيقولون إن ما بين أيدينا من الكتب يكفى لتكوين الأديب الذى يستطيع أن يخلق القضايا العقلية والنظريات التى سوف تكون عدة الجدل فى المستقبل . وعلى النقيض من هؤلاء فئة تذهب إلى عكس ما تذهب اليه الأولى وإن كل من يعرف مقدار التراث الذى خلفته القرون الأولى ، ويجول بفكره جولة يقطع بها تاريخ ستين قرناً من الزمان ليقنعه بعدُ الشقة التى تفصل بين أبناء العرب وبين المراجع التى هى عدة لجدل المستقبل ، بلزوم الاكباب على درس ما يلخص جدل الماضى ، من آثار الآداب والفنون .

* * *

عن لى أن أكتب فى هذا الموضوع ، وأن أخص الرسالة بما أكتب ، إثر سؤال تقدم به إلى صديق من خريجى الأزهر ومن رجال التخصص فيه يريد به أن يعرف المصادر التى يستطيع أن يدرس فيها تاريخ الاسكندر المقدونى وحياته وأعماله ، وقد أراد